راية لونها.. لون كل الدماء

١

يفقد العالم لغة المعقول ، تتمثل الفاجعة وجها اسطوريا ليس كالوجوه ، وعينا الوحش تلفقانه بلهفة مسعورة ، هل كان يتصور ان ثمة امل من ان يتغير شيء ما خلال الطواف الاخير ذاك ، ليس تماما .. اذا كان ثمة شيء يجب ان يتغير

فقد كان يجب ان يتغير منذ زمن .

وليس اهم ما في الموضوع الان وجه الوحش ، فرغم انه عاش في راسه طويلا ، ورغم ان فارقا كبيرا يفصل بين ان يعيش الوحش في راسك وبين ان يواجهك ويحدق في عينيك .. لكن ذلك لم يكن اهم ما في الموضوع .. لقد نصبنا الدخنة معكوسه داخل بنادنا .. وبدلا من ان يفرز دمنا السموم الى الخارج صاروا يحقنون دماءنا بولا ..

عندما « فاجاهم » بوجوده رغم انه كان مقيدا ، كانت هناك لحظة فصلت بين احساسهم به الها ترف الجفون قبل التحديق به ، وبين احساسهم بالزهو الصبياني كونهم استطاعوا اخيرا ان ينظروا اليه كما كانوا يتمنون دائما – من فوق – رغم ارتعاشة عيونهم .

حين يستيقظ الافتراس في مسامات الوحش يتراجع المنطق كسيحا ويصبح للكلمات طعم العفن .. تفقد الاشياء مسمياتها، وتبدو اسماء الاشياء نكتة سخيفة سمجة ، هل كان جسدا هذا الذي يشرخ .. ربما كان ارضا .. قضية .. نعم .. انه في الاخر قضية .

وانه كان يعي ذلك .. قبل ان يذر الملح جراحه ، قبل ان يجبروه على ان يشرب بوله .. قبل ان يحقنوا دمه ماء .. وقبل ان يبدأوا (بتعصيله) بلذة عارمة مخيفة ..

كان كبيرا .. وطوال ايام تكلم كل شيء فيه .. وكل شيء فيه تكلم كان ينتهي .. فمه فقط نسي كيف يستعمله حتى كانه لم ينطق يوما .. حتى كان ما يجري على ساحة جسده لا يعني لسانه .. وكان كبيرا .. ففي الاخر الانسان قضية .. وسقوط الجسد في معركة القضية يعرفها من هواتها .. تصبح اكثر تماسكا .. تفقد الملموس .. لكنها تظل غنية .. فكل شيء عندها .. ولا يضير الجسد ان يسقط مرة واحده .. او عدة مرات ..

كان كبيرا والوحش يتملظ بدمه
وكان صموده السخ والضوء .. والقبله ..

٢

كان وجهه وديعا رغم اقتراب اللحظه .. وكانت اللحظة تحيطه ، تمسح على جبينه ، تمسك بيديه .. تقبل اطراف اصابعه بحنو ام .. وكان مستسلما ينتظر ان تهمس له « هيا » ..

نظر الى الاخرين يتعاطمون امام عينيه الثابتتين .. ومن زاوية عينه اليسرى رُغم ثباتها الى امام .. كان يراهما يتحركان بمرح طاغ .. وهما يتنقلان بين الحاجز والقاعه ..

– عندما يموت الانسان شهيدا تتحول روحه الى نجمة في السماء

– او ربما مشعل يا امي

– بل نجمة تبتسم للناس بحب، تدعوهم للطريق

– ربما فضلت كثيرا ان اكون هذه النجمة .. لكن هنا ، في الارض

– وهل تسطع النجوم في الارض يا بني

– ربما اكثر منها في السماء ..

شد قدميه على الارض .. صلبة ، الوطن قضية ، انه ربما منذ ولادته كان يشتاق الى هذه الارض .. تكفيه منها دقائق، بعدها سينزرع فيها الى الابد ..

زاوية عينه اليسرى لا تزال تعقبهما ... اقتربا .. تجاوزاه تماما .. قام بتثاقل وعيناه مثبتتان على ساقي فتاة .. تسلقها بعينيه حتى الشعر الاشقر المهوش .. كانت منهمكة في فتح حقيبتها للتفتيش ..

حمل حقيبته وضعها على الحاجز .. « من يفتش الاخر ؟! » كانت عيناه اليمنى واليسرى تلتقطان بزاويتيهما الخارجية ، وفي وقت واحد صورتين لاثنين كانا يرقبانه من خلال سيقان الفتيات العاربة ..

هنا الفصل .. تكتمل نصف الدائرة القاتلة تماما .. لا .. سافتحها لك ، وابتسم بتهذيب مؤثر..

واحد .. اثنان .. ثلا ..

– ماذا جرى ..

– انكفىء

– هل هي الحرب اندلعت في مطار اللد

– خذ الارض

– انه الجحيم بعينه

– نسيت كيف استعمل سلاحي

– يا الهي لا تدعه ينظر الي .. واعاهدك اني ساهرب نهائيا .

– ماذا جرى ؟

الف ماذا جرى

لكن الوجه الوديع ظل وديعا .. الامر في النهاية لا يعدو انجاز مهمة .. الدم ؟.. لقد شاهده دائما على ارض جامعة طوكيو وشوارعها ، ودم ثلاثة فلسطينين لا يزال طازجا وعلى هذه الارض بالذات ، وطوفان الدم في فيتنام ودير ياسين التي صارت كل شبر في هذه البلاد يحلا عينه ..

تعالي انت .. لنذهبي ، هناك عند الجناح .. وانت هناك في المؤخرة .. وانت .. حبيبتي .. ستظلين معي .. اخفضي ذراعك .. هاتي قيدك .. اوصلي الجدار .. انتظريني .. ها انا قادم .. احتضنيني .. هاتي شماعك .. كله .. لتنزرعي معي .. انا ارضك .. لتنزرع في هذه الارض ، وعند الموسم سيحصد الاخرون الفرح .

هكذا .. ه .. ه ..

– امي .. هاانذا اصير نجمه .. الف نجمة

– لكنك لست في السماء .. كيف اراك

– تعالي هنا .. السماء ، بكل نجومها في هذه الارض .. تعالي .. كوني نجمة انت ايضا .

٣

عيناه عالمان متوهجان يضمان كل افراح الكون ومسراته يسبحان في بحر وجهه الاسمر .. الاسمر ، كان عالما .. كان عالما ..

في كون راسه لكل نجم مدار .. تنتظم المدارات ، تتقاطع .. تلتقي .. يتجاوز احدها الاخر بنظام التزامه العريق الموغل في تربة ايمانه المبدا في الاخر ليس « ربيطة » .. ليس قميصا ، ليس حذاء .. لا .. المبدا نسغ القضيه ..

على تربة الارض السمراء كان واحة .. وكان نبع عطاءه يستصلح الصحراء .. وتمتد الى البعيد ، البعيد ، صار كل الفلاحين ماء .. صار كل العمال سحابات خير ماطرة .. وكان ماء المطر حين يمتزج قويا بمياه الينابيع يجري بعنفوان وتوثب ، ينحت الصخور ، ينحت السواحل القفرة .. يعمق مجراه دون توقف ..

وكانت عيناه عالمين .. قنديلين ..

كانت القضية عنده لولبا يدور في العمق .. اكثر .. لا .. الصمت جريمة حين تكون الكلمة رعشة في الارض .. وحين تكاثف الرعشات ، يصير زلزالا .. و .. يجب ان يزلزل الارض ..

كان جالسا .. هناك خلف طاوله ، ربما ضاع اثرها .. لن يتعرف عليها احد .. القلم بيده اكثر ثباتا من البندقيه في يد مقاتل .. كتب .. السيل عندما ينحدر هادرا ليس لقوة ان تقف في وجهه دون ان تتلاشى .. وانا قطره في هذا السيل ، لن توقف اجتياحه .. اذا احسستم انني السيل كله فانتم لا تفهمون معنى ان يتجمع السيل قطره .. قطره .

– اعصبوا عينيه

– اعرف كيف احدق في عيون القتلة

– ادر وجهك الى الحائط

– افضل مواجهة قاتلي .. اريد ان ازرع وجهي في عينيه الى الابد

– واحد .. اثنان

ترتعش السبابه السمراء فوق الزناد الاسمر .. ينظر الجندي في العينين العالمين ، ولثانية كان الحوار بين العيون الاربعة قد اكتمل .

– اعترف ان الخطورة كل الخطورة في ان يتحول صراعنا مع عدونا الى اصبع اسمر يضغط الزناد الى قلب اسمر .

تفرقع الرصاصة ، كان صوتها مضحكا .. تئز مثل ذبابة .. يسقط الجسد الاسمر .. لكن شيئا بعد ذلك – صدقوني – لم يتغير .

٤

كانت حياته – على قصرها – تختصر حياة الالاف .. كان ممتلئا .. دائم العطاء .. وافر العطاء .. عاشقا .. يلهبه الشوق ينغرس فيه لولبا ملتهما .. رغم ذلك كان في وداعة طفل ، لم يغب ابدا ، كيف قالوا انه ذهب .. اين يذهب .. الارض اعجز من ان تضيع وجهه النقي .. لا زلت اراه يطوف الحجرات ، يتوقف عند كل مكتب ، يتطلع في الاوراق ، يقول كلمة .. يبتسم دائما ، لكن ليس الجميع يعرف انه كان يبتسم .. شيء بين الابتسامة والاشراق يملا وجهه .. حتى عندما نتروه على مسافة عشرات الامتار وجهه كان مشرقا ، وفمه يحتفظ بذلك الطابع الاليف – كانه يقول – هل هذا كل ما عندكم ؟..

وعيناه مغمضتان بوداعه اسمعه معها يقول « خلصونا يا جماعة .. عندي شغل كثير » ..

افتقدناك كثيرا .. فقد كنت كبيرا ، واسعا عميقا ، فيك رائحة البارود الحلوة ، وطعم الاستشهاد الذي يختبىء تحت السنتنا كلنا ..

يتعبني الكلام عنك ، فكل شيء عنك يبدو هشيلا ، وعيناك تتابع سطورنا لتقول « ليس هناك حلا سهلا لقضية صعبة » ونحن نعرف .. لكنك كنت اسبقنا لتكون الفتيل الذي فجر الكلمات .

■ سارك

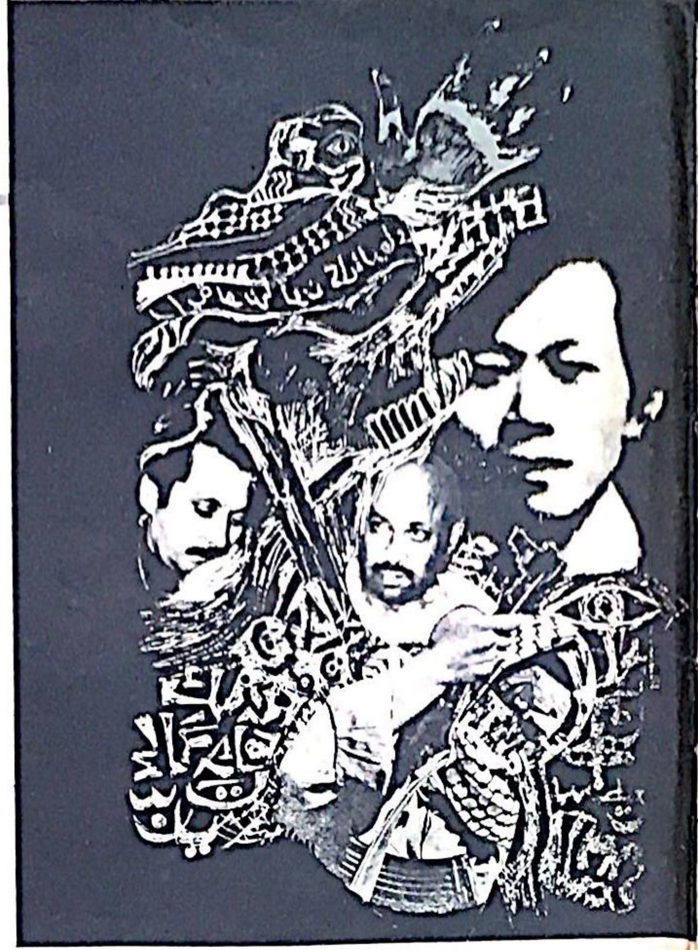

لا .. لم يمت

■ بلند الحيدري ■

خسئتم .. من قال : مات
لا .. لم يمت
ما زال صوت خطاه يملأ كل عرق
من عروقي بالحياة

خسئتم
ما مات غسان ، ولا الارض التي
جادت به تموت
قد يوهن المياه بعض وهلة
جفونه
وقد يغطي جرحه المدمي بعض وهلة
عيونه
لكنه
يظل في النزف دما يقيت

لا .. لم يمت
ما دام فجر امة في جرحه يبيت

●

خسئتم
غدا اذا ما زحزحت اكفنا
سكونه
ستدركون
ما الذي ابقى لنا مهاجر ، صموت
ستدركون
ما الذي خبأ تحت جفنه السكوت

وكيف ان مسربا في الليل قد اضاءه تابوت
وكيف ان بعضنا يولد ملء بموت

●

خسئتم
لا .. لم يمت
ها نحن آتون به
فهللي
ايتها المشارف الخضراء يا بيارقا توصل بين
الارض والسماء ، يا مواكب الفداء .. ها
ها .. نحن آتون به
من آخر النداء ، من آخر ما نملك من رجاء
فهللي
لا تشعلي الشموع ان بيته مضاء
لا تغسلي جراحه
فتلك كانت ساحه ، وتلك كانت
ارضه
وتلك كانت بيته المزهو بالدماء
لا تلمسي
جفونه
يخاف ان يوهنها المياه
لا تصرخي
غوري وراء صمته حكاية
اروع ما ابقى بها
ان تولدي في موته
مشارفا خضراء
بيارقا توصل بين الارض والسماء
اروع ما ابقى بها
ان صرت في الموت لنا .. الرجاء
ان صارت الموتى به .. احياء

●

خسئتم
لا .. لم يمت
ها .. نحن آتون به
مواكبا تسال عن طريقها في الموت والفداء ■

غسان لا يزال بيننا

■ برجيت - كوبنهاكن ■

بالامس ضرب العدو هدفه وكان دماء مائة مليون عربي لم يكن ليروي عطش الدم الاسرائيلي ، لقد كان بحاجه لاكثر .. كان على واحد من اروع من في الثوره الفلسطينية ان يقدم حياته من اجل كفاح شعبه .

يوم السبت كانت الصحافه البرجوازيه تسلى بعرض اخبار اعداء غسان وتكهن فيمن يكون قد نفذ هذا العمل الجبان .

ولكن بالنسبة لنا نحن الذين نعتبر من اصدقاء غسان الذين لا يعدون ، فقد كانت القضيه مختلفة ، كان طموح غسان ليس كما يريدون ان يصوروه بالحقد ، بل بالعكس كان طموحه الحب .. الحب العميق لشعبه ، شعبه الضحية التي طردت من ارضها وعذبت خلال عشرات السنين على ايدي الامبرياليه والصهيونيه .

اعطى غسان كل قدراته للثورة الفلسطينية خلال اكثر من عشرين سنة وعاش خلال تلك السنين وهو يعلم ان حياته ستكون الثمن . تلك الحياة التي اغنت الشعب الفلسطيني وكفاحه ضد عدو لا يتورع عن استعمال اي الطرق .

كل العرب سيذكرون غسان ، اولا لانتاجه الادبي الذي تركز على موضوع واحد – عذاب وكفاح شعبه ، قليل من كتبه ترجمت الى اللغات الاجنبية لكن حتى هذا القليل كان يشعر الانسان من خلاله انه مع انسان خارق الذكاء سابق لوقته .

وكان استشهاد غسان صدمة لكل اصدقائه ورفاقه لا تحتمل ..

كان قادرا على ان يبقي الروح عالية حتى في اصعب المحن .. ان خسارته لا يمكن ان تعوض من خلال اي عمل انتقامي ، لان العدو ببساطة ليس لديه شخص مماثل ..

لكن من الضروري التشديد على الحقيقه بانه يمكن اغتيال اي ثوري لكن لا يمكن اغتيال الثورة . لقد كان غسان من خلال عمله وحياته مثالا للشعب الفلسطيني وفي كل العالم سنناضل لنثبت ان وجوده لا يمكن ان ينتهي . ■

غسان كنفاني

- يميل الى الالوان الهادئة .
- عطاؤه للحياة يوحي باضعاف عمره .
- يجمع بين رقه تشيخوف والتزام غوركي
- وردت عنده جملة « الثورة مستمرة » في اكثر من مقال واكثر من عنوان واكثر من ملصق
- يندر ان يتحدث دون ان يمسك بالقلم ليكتب او يرسم
- حروفه جميلة ، رشيقة ومستقيمة التشكيل
- يحث رفاقه المحررين على الذهاب الى المطبعة للتعرف على العمليات الفنية في الطبع
- يكره التحدث عبر التلفون لذلك تراه يختصر في مكالماته التلفونية
- عندما كان يرده مقال يتعلق بالركن الذي لا تعود مسؤوليته مباشرة اليه ، يكتب عليه « الرفيق فلان .. قرر » .

★★★

قالت آني عن ادب غسان ..

آني ، زوجة الرفيق الشهيد غسان قالت عن مؤلفاته :

– طبعا اني لم اقرأ كل شيء كتبه لان ليس كل ما كتبه مترجما . وكان يترجم لي بعض مقالاته . آمل ان تترجم كل اعماله لم اني رأيت الفيلم المأخوذ عن روايته « رجال في الشمس » لا شك انه اجمل ما رأيت في حياتي . واذا ارسل هذا الفيلم الى كافة انحاء العالم فهو كان غسان نفسه يتكلم .■

حزن البرتقال الحزين بفقدك يا غسان

لقد كبى الجواد وسقط الفارس فلا
قرت اعين الجبناء
لا تبكيه ولا تندبيه ، يا ام سعد
امسحي دموعك
دموع لخنساء على صخر لن ترضيه ،
ستزعل البطل الشهيد ، غسان تزعله
الدموع ويجرحه البكاء .
يا ام سعد ،
ستفتقدينه وسيفتقده الرفاق ،
ستفتقده القضية .

الانسان غسان ، الذي انجبته الارض الطيبة
هناك ، في عكا وارضعته حنانها في حيفا
لم شرده الجناة ، تغنى لسانه بالارض ،
بفلسطين وغرد قلمه باناشيدها .
لم يعد بيننا ،
لقد بدت ساحة النضال مقفرة بدون الفارس
اصفر شجر الزيتون المغتصب وحزن
البرتقال الحزين .

يا ام سعد ،
المصاب كبير حين يسكت صوت الرفيق غسان
الى الابد ، صوت الامل والعودة ، عكا
وحيفا والقدس .
المصاب جلل
حين لن تمشي رائحة تراب الارض الطيبة ،
رائحة فلسطين ، تنتشر من كلماته واحاديثه
قطع الحديث وسكت المتحدث .
امتدت اليه اليد التي شردتك وسلبتك ارضك
واسكنتك الخيام ،

واليد التي تآمرت على قضيتك ،
واليد التي خذلتك ..!
علم على جبل الثورة كان ، ابو فائز .
لن تري وجهه الصبوح بعد الان ،
لن تقرأي قلمه الثائر يسطر احاديث الحق
والنضال ويروي للاجيال قصص الزيتون
والبرتقال الحزين .
لقد جف المداد .

آه يا ام سعد ،
ما اشد الفراق واصعب حبس الدموع على
غسان ، حين تجمد العيون وتدمع القلوب
ويقف الرجال امام جثة البطل فتقرع الطبول
لترفع الزنود الراية التي كان يحملها ،
وينشد الرفاق لحن النضال ويواصل الركب
مسيرته ، نحو ارض الزيتون المغتصب
والبرتقال الحزين .

سفيان ■